وأما الأرض فتحب المطر!

قصة : د. سيد شعبان

يزدهي حين يلامس خد الارض، يمســـك به صفحة كتابه الذي يطالعه كل يوم، لايمل من قراءته، حين كان صغيرا أنصت إلى جدته تسرد حكايات الشـــتاء، يذهب بعيدا حيث موطن الأحلام، يشاهد الجنيات وهن يغتسلن في النهر، كن جميلات، يتوارى حياء، يمنعه الخجل من أن ينزل خلفهن، جمالهن فطري كم كن فاتنات !

هكذا يتخيل الصورة من حكايات الجدة، أتاه النوم ذات ليلة تمثلت له واحدة منهن، لم يفزع، ثمة خدر جميل بدا يسري في جسده، أحقا هي؟

أمســـك ببقايا الماء التي خرجت من النهر، وجد لها عطرا، شعر بأنها تخصه ببعض حديث، لم يتململ كان يســـتعيد ما فاته، أخبرته به الطيبة الوقور، إنه أحد أشراف بني فاطمة، لم يعلم به أحد، تخفيه في ردهات المنزل الطيني، أي غول يتربص به؟

بظهره وشـــم وضعته ليدل عليه ؛ كلمات معطوفة بالحبر الأزرق، تنتهي المســـافات والشخوص، يخرج النهر جنياته، يتراقصن حوله مثل فراشات تحوم حول النار، طوى سره مثلما شـــاعر تنبأ، غامت عينه أعشى يلتمس هدب النور وحيدا ، تبعده الأيام عن عالمه، يرتهن القمر مثل غجرية تأتي في ظلمـــة الليل، البلاد منافي، والطيور أسرى لدى وكر الغربان، في تلك الليلة ارتدت ذلـــك الثوب الموشى بالعدم، لم تفتنه، حين رآها ارتعد، تغيب الحكايات وتنزوى مثل حلم جيل يقهره الجلاد !

استجمع قواه حاول أن يمسك بالقلم ، ما الداعي لهذا الحكي ؟

يشي به الحائط، تختبيء العقارب دائما داخل الثقوب، تخادع، تسحب فريستها، الشدو والغنج ، الكلمات التى تربك المشـــاعر، الوحدة وحش يفترس الأماني مثل ذئب ينطوي على غدر، لا ذنب له غير ذلك الأمان الذي يعيش به، تقترب الســـاعة من منتصف الليل، يرخي الصمت ســـدوله، يتردد الصدى، تبعث الحيات فحيحها، للشباك حديث الفزع، ترسل الســـماء رعدها وبرقها ظلمات بعضها فوق بعض، أخبرته بأن الإبل تتعارك في السماء «جمالات صفر» !

به حنين إلى صدر أمه، لم تســـتطع أن تنسيه، به خدر لتلك الجنية ذات الشعر الذهبي، الخيال عالم يبحث فيه عن ذاته المنطويـــة على جراحها، جالت في ذهنه أفكار الثورة، يلعن الخيبة التى أرضعته الوهم، لم جبن يوم كان الجلاد قريبا منه ؟

هل كتب عليه الخوف سطور الذل ؟

طار النوم من عينيه، الهم مثل عبء ثقيل، ديـــن يتحاشى به بعيدا، تلك أهوال تميت فيه الحياة ســـيذهب في الصباح إلى ضفة النهر ملتقى الشجر والمطر، الأمهات يتركن بعضهن بجواره، تلتقي الجنيات بهن، العطر هناك شـــهي، ربما يجدها هناك، سيحلو الحديث معها، ســـيعلو هتاف، آن لذلك الثوب الأبيض أن يتمـــزق، إنه كئيب مثل الذل القابع داخله ؛ الكفن !

ليلعن الخيبة التى عاقرها ذات ســـاعة، ســـيطلب يدها ، لن يتركها هذه المرة، القيد، الحمرة القانية، السوط، الجلاد، ما يفعل به؟

ليغمض عينيه.

سيصعد تلك الشجرة، كم هي جميلة !

تباعدت به المسافات وحيدا، السوط ترك بظهره أخاديد ، تعاطى الشعر ، أحب قصائد البردوني ولا فتات مطر، أحب أمل دنقل يترنم دائما «لا تصالح» أمه حين كان ســـواد الليل قيل إنه جاء أردفها خلفه، الجدة أبقته معها ، كانت الجنية ذات الشـــعر الأصفر تبحث عنه؛ أعطته مرة رسالة مطوية، لم يشأ ان يفتحها، لم هذه الليلة فكر أن يفضها، هل لأن العمر بدأ يذهب به بعيدا ؟

الحكايات تمثل له امتداد العمر؛ حتي يدرك به شرفة القادم، يجد فيها عالمه المشتهى، يداري دمعة تغلبه كلما مر بهذا المكان؛ أن يتزن ويعلو شأنه، وجد الكلمات مخدرا، لها سحر غلب عليه فما يبرأ منه، هل سيجد ذات الشعر الأصفر زرقاء اليمامة ؟

الشواهد مطمور، جاء اللص وأزال الحد الفاصل، تداخلت التخوم مثل ضباب، إنه يحمل العـــبء وطنا، التفاهة حكمة، والعجز والحصر بلاغة، فكر كثيرا أن ينافق، يلبس ثيابا تداري القيح المتداعي عبر الخبل الســـارب معه في سدفة الليل، تأبت عليه تلك الحكاية التى قصتها جدته عن الرجل الذي قتل الهراس، رفض أن يبيت في وكر الشيطان، ليتها كانت لا تجيـــد الحكي، ربما استراح، ولعله وجد في الـــبلادة الهدوء. كثيرون يعاقرون النساء في خلسة، يأتين بالأولاد كأنما هي شواهد على تلك الحماقات، لا تجيد النساء غير الأطفال، هي الوحيدة التى أرضعته دون أن تنســـيه أمه، ليتها وضعته جانبها، يجهل أباه، ما يتذكره أحد حتى النصب التذكاري سرقه الشيطان !

من ينسبه إليه؟

لقـــد شربت الوحوش دمه، الحكي لا يفيد، الذاكـــرة مثقوبة، هي مثل خرافة باضت، ولدت في البلادة غرابا، ينعق ويقامر، الشـــوهاء حبلت به، انتشت طربا لمقدمه، تزهو بحملها، وهل ترى غير ذات وزر؟